بيان جنوبي تحرري من فلسطين
من أكتوبر 1492 إلى أكتوبر 2023

خالد عودة الله

إلى البرق الجنوبي المبشِّر بمواسم الخير

فلسطين، الأندلس، العالم

في 12 تشرين الأول/ أكتوبر 1492 حطَّت حملة كريستوفر كولومبوس عبر الأطلسي على رمال جزر "البهاما" باحثاً عن الذهب لتمويل حملة صليبية جديدة "لاستعادة القدس"، ومدشناً حرب الإبادة الأطول في التاريخ الإنساني، والتي لا تزال مستمرة حتى يومنا هذا ضدَّ أهل البلاد (الشعوب الأصلانية). انطلقت حملة كولومبوس الإبادية لإخضاع العالم أوروبياً بعد تسعة أشهر من سقوط غرناطة—المعقل الأخير لحضارة التنوع الإنساني والتلاقح الحضاري بين الأمم. 533 عاماً من الإبادة والاستغلال والمحارق ومعسكرات الاعتقال يقابلها 533 عاماً من المقاومة المستمرة من أهل البلاد في آسيا وأفريقيا وما صار يعرف بأمريكا اللاتينية وأمريكا الشمالية في الصراع على الأرض والإنسان والحكاية. في محاولة الإنسان الوعي بفداحة الألم الإنساني لحرب الإبادة هذه، تهدر الأسئلة في الرأس كضرب مطرقة: كيف أمكن لهذه المجزرة المفتوحة أن تستمر لـ 533 عاماً دون توقف؟ ولماذا عجز المقهورون عن تأديب أوروبا ووليدتها أمريكا وإعادتها إلى جحرها، إلى زاويتها، في العالم؟

قد يبدو من المريح إحالة الإجابة على الفاشية الإبادية المتأصلة في أوروبا ووليدتها أمريكا، ولكن لا يمكننا أن نعفي أنفسنا، نحن المذبوحين بسيف النار الأوروبي، من المسؤولية عن إبادتنا. صحيح أننا قاومنا وما زلنا نقاوم، ولكن الشرط الأول الذي سمح لهذه المجزرة الطويلة أن تستمر هو وعينا الزائف بأنها جزء من عملية كونية موضوعية وحتمية تاريخية وتعبير عنها. ولا زلنا، حتى يومنا هذا، نكدح لاستعادة ذواتنا، وفي مرحلة ما استكانت أنفسنا إلى عملية الكدح هذه، فأشعرتنا بنوع من الراحة، وربما بالشعور بالانتصار النقدي بينما المجزرة الكونية لا زالت مستمرة... بل تقترب شيئاً فشيئاً من "الحل النهائي" كونياً بالقضاء على البشرية والحياة على الكوكب.

إن نشوء حركة الاستعمار الأوروبي في العام 1492 هو استمرار للحرب الصليبية (ابتداءً من العام 1095) على فلسطين، وعلى التعددية الإنسانية، هذه الحرب التي ألهمت "حرب الاسترداد" في شبه الجزيرة الأيبيرية. وضمن هذا السياق التاريخي الطويل 1095-1492، وُلد المشروع الصهيوني في فلسطين كمشروع استيطاني أوروبي يجمع بين فاشية أوروبا المتأصلة بالقتل والإحلال والقضاء على التنوع الحضاري البشري وتصدير مشكلة أوروبا المزمنة مع اليهود، فيما صار

يعرف بـ"المسألة اليهودية"، إلى خارجها، واختراق رأسمالي-حداثي لفلسطين، فجمع بين الاستعمار الاستيطاني والدور الإمبريالي.

لقد بدأت مشاريع الاستيطان الأوروبي الحديث لفلسطين في منتصف القرن التاسع عشر بمشاريع استيطانية ألمانية وأمريكية وسويدية قاومها أهل البلاد ببسالة. واستمرت هذه المقاومة ضد الطور الصهيوني من الاستيطان الأوروبي في منتصف القرن التاسع عشر على شكل موجات من الهبَّات الفلاحية للدفاع عن الأرض وضدَّ تحويل أهل البلاد إلى قوى زراعية عاملة في القوبَّنيات الرأسمالية الزراعية الصهيونية الأولى خاصة في السهل الساحلي الفلسطيني، حيث شهد هذا الساحل فاتحة عهد المجازر الإمبريالية الصهيونية في بلادنا فلسطين، وذلك في ليلة 10 كانون الأول/ ديسمبر 1918 في قرية صرفند الخراب قضاء الرملة. هناك، حاصرت القوات البريطانية القرية، ومن ثم أحرقت بيوت أصحابها، وهجَّرت ما تبقَّى من أهلها بعد تنفيذ مجزرة راح ضحيتها العشرات من أهل القرية بتحريض من مستوطني "ريشون لتسيون" (الأول لصهيون- عيون قارة) و"نس تسيونا" (معجزة صهيون- وادي حنين) تحت أعين الفيلق العبري بقيادة زئيف جابوتنسكي الذي نصب معسكره على تخوم القرية. جاءت المجزرة انتقاماً لمقاومة فلاحي القرية للاستيطان الصهيوني وعربدة الجيش البريطاني بالإضافة إلى سعي المستوطنين للاستيلاء على أراضي القرية الزراعية الخصيبة التي كانت تمتد على شكل جيب يمنع التواصل بين أراضي مستوطنتي "ريشون لتسيون" و"نس تسيونا" في قلب ما بات يعرف بـ"السهل الساحلي الرأسمالي"، حيث نشأت المزارع الصهيونية الرأسمالية (الحمضيات والكرمة) القائمة على الملكية الفردية الخاصة للمستوطنين الصهاينة والتي تنتج محاصيل زراعية نقدية معدَّة للتصدير، وتعتمد في تراكمها الرأسمالي على العمالة الرخيصة للفلاحين الفلسطينيين مسلوبي الأرض. من الجدير ذكره هنا أن الطبيعة الرأسمالية للاستيطان الصهيوني الأول في فلسطين خضعت لعملية تهميش منظمة في تاريخ المشروع الصهيوني لصالح تسييد السردية الاشتراكية لهذا الاستيطان في بلادنا فلسطين.

وبذا، فقد شكلت مجزرة صرفند الخراب 1918 وتهجير أهلها "النموذج الإرشادي" للمجزرة الإمبريالية الصهيونية المستمرة في بلادنا فلسطين من حيث استهدافها تفكيك الوجود الجماعي الفلسطيني ومن ثم اعتمادها كاستراتيجية إبادية في فلسطين. وصلت المقاومة الفلاحية الفلسطينية إلى ذروتها في ثورة 1936-1939 ضدَّ الاستيطان الصهيوني والإمبراطورية البريطانية، هذه الثورة التي تحوَّلت إلى حدث كوني من حيث صداها الثوري في مستعمرات الإمبراطورية، ومن حيث كونها وجَّهت لطمة للإمبريالية البريطانية في فلسطين التي قدَّمت ذاتها باعتبارها مخلِّصاً للعرب من الاستبداد الشرقي ومشروعاً لتحضيرهم. قمعت القوات البريطانية والمليشيات الصهيونية الثورة الفلاحية بأبشع أساليب القتل والتعذيب والقصف الجوي والحصار ببناء الجدار الاستعماري الأول في فلسطين على الحدود الفلسطينية اللبنانية والسورية. وفي هذه الثورة، تولَّد الوعي الفلسطيني المتقدم بأممية الساحات ووحدتها في الصراع ضدَّ الإمبريالية الفاشية كما جسَّدته مشاركة متطوِّعين فلسطينيين وعرب ضمن "الألوية الدولية" في القتال ضد فاشية فرانكو في الحرب الأهلية الإسبانية 1936-1936. لم تقتصر المشاركة النضالية الفلسطينية والعربية في مقاومة فاشية فرانكو على المجهود العسكري،

بل تعدَّتها، وربما كان ذلك هو الأهم، إلى تطوير الفكر النضالي الأممي ضد الفاشية بالتركيز على الأصول الاستعمارية لنشوء الفاشية في أوروبا. وقد لعب الثائر الأممي المقدسي نجاتي صدقي دوراً مركزياً في هذا التنظير الثوري، وهو صاحب مقولة "ذهبتُ للدفاع عن القدس في قرطبة"، حيث عنوَن فرانكو حربه، ضد الطبقة العاملة واليسار الإسباني، بكونها حرب الاسترداد (ريكونيكويستا) الثانية للأندلس، وترافق ذلك مع تزايد المشابهة بين سقوط الأندلس والخطر الصهيوني على فلسطين في الصحافة والوعي الشعبي الفلسطيني.

نجحت بريطانيا والمليشيات الصهيونية في قمع الثورة الفلاحية الفلسطينية عبر حملة من الإرهاب المنظم ضدَّ المجتمع الفلسطيني، أدَّت إلى تدمير قدرته على الصمود والمقاومة، فكانت نكبة العام 1948 تحصيلاً حاصلاً. ومع ذلك، سرعان ما أعاد أهل البلاد، وقد تحولوا إلى لاجئين، تنظيم أنفسهم وإطلاق المقاومة المسلحة المنظمة والنضال الشعبي عبر سلسلة من الانتفاضات الشعبية والعمل المقاوم الفردي، الذي لم يتوقف، في ملحمة نضالية مستمرة على الرغم من البطش الاستعماري والحصار والدعم الإمبريالي طوال 150 عاماً حتى يومنا هذا، انضم إليها وساندها كل أحرار العالم.

الطوفان

قاوم الغزِّيون وأفشلوا مشاريع الاستيطان الصهيونية على أرضهم منذ العام 1910، وكانوا المبادرين في إطلاق العمل الفدائي المنظَّم في بداية الخمسينيات من قبل اللاجئين الفلسطينيين ضدَّ المستعمرات التي أقيمت على أراضيهم التي هُجِّروا منها والتي صارت تعرف بـ"مستوطنات غلاف غزة". وقد تحوَّلت قدرة احتمال هذه المستوطنات الحدودية، منذ نشأتها في بداية الخمسينيات، على مواجهة المقاومة الغزية إلى مقياس ورمز "قدرة الاستيطان الصهيوني على البقاء في وسط معادٍ"، وصولاً إلى المقاومة الملحمية للاحتلال بعد العام 1967، والتي تكلَّلت بفرض أول انسحاب من الأرض الفلسطينية بعد النكبة على المشروع الصهيوني وتفكيك مستوطناته في قطاع غزة في أيلول من العام 2005، لتبدأ "إسرائيل" بعدها بشن سلسلة من الحروب الدموية على القطاع الذي فُرض عليه حصار خانق منذ العام 2007 كعقاب جماعي للمجتمع الفلسطيني الغزي بسبب اختياره الديمقراطي الحر الانحياز لخيار المقاومة في مقابل خيار التفريط بالأرض والتعاون مع الاحتلال بموازاة مشاركة السلطة في حصار غزة وخوض حرب شاملة شنتها بصفتها وكيلاً محلياً على المقاومة في الضفة الغربية وتفكيك مؤسساتها الاجتماعية. وهكذا، ولد أكبر معسكر اعتقال جماعي للموت البطيء في التاريخ يحوي أكثر من مليوني فلسطيني في غزة.

في السابع من تشرين الأول/ أكتوبر 2023 ثار معسكر الاعتقال الأكبر في تاريخ البشرية على الحصار وعلى جرعات القتل الدامي للحروب الصهيونية المتواصلة على القطاع منذ العام 2006 التي خلَّفت آلاف الشهداء وعشرات الآلاف من الجرحى. وقد جاءت ثورة السابع من أكتوبر، التي جمعت بين العمل العسكري والهبة الشعبية المتمثلة في اختراق آلاف المقهورين الجدار الأكثر تطوراً في العالم، والذي يفصل أكبر تجمع للاجئين في العالم أيضاً عن أرضهم التي هُجِّروا منها في عام النكبة 1948 وتبعد مئات الأمتار عن مخيماتهم. وهو الجدار ذاته الذي يفصل مجتمع التخمة الزراعية الرأسمالية

الاستعمارية، حيث يتركز في مستوطنات "الغلاف" الإنتاج الزراعي "الغورميْه" المعدُّ للتصدير والنهم الطبقي في المستوطنة "إسرائيل" والعالم، عن مسلوبي الأرض وأصحابها المجوَّعين. "عايشين في نعيم أرضنا"، كما صرخ أحد عابري الجدار عندما صُدم برؤية رفاهية حياة المستوطنين، وكما هو الحال في "المجتمعات المسوَّرة"، التي تفصل الجدران فيها بين عوالم الأغنياء المتخمين والفقراء المحرومين الذين يمارَس ضدهم العنف الإبادي، بشقيه العسكري والاستغلالي، تنتج سلع يكمن منطقها التبادلي في سرعة استهلاكها وهدرها وهدر الحياة بسياسات الإفقار والقتل البطيء بسياسات النيوليبرالية، حيث أصبح البشر وجوداً مستهلكاً. وبهذا، فإن ثورة السابع من أكتوبر تندرج ضمن صراع أهل البلاد على الأرض والحق في الأرض كنمط حياة تسعى الإمبريالية إلى تحويله إلى نمط للإنتاج عبر الاستيطان والشركات متعددة الجنسيات. وأما في مجتمعات الجنوب المقهورة في الشمال، حيث تفصل المدن المسيَّجة بين الفقراء الكادحين والأغنياء المترفين، فقد أصبحت هذه الظاهرة أيضاً نمطاً لنوع من الفصل الاجتماعي في دول الجنوب بين المترفين وعامة الخلق من المحرومين عبر سلب حقهم في الأرض. كما هو الحال في أحياء الصفيح الفقيرة المسوَّرة، المعروفة بـ "الفافيلا" في البرازيل، والتي يطلق سكانها على العديد منها في مدينة ريو دي جانيرو اسم "فافيلا غزة"، هذه الأحياء المحاصَرة التي تتعرض لعمليات القمع الشرطي الدموية المُدرَّبة صهيونياً، وكما في ظاهرة" كومباوندات الميسورين" في مصر التي تتكاثر على الأراضي المشاع بعد تخصيصها لشركات التطوير العقاري الرأسمالي المحلي والخليجي كتعميم للنمط الاستعماري الاستيطاني.

كانت هذه هي الهبة الشعبية الثانية بعد هبة "مسيرات العودة" السلمية التي انطلقت في يوم الأرض 30 آذار/ مارس 2018 واستمرت لما يقارب العامين، حيث قامت "إسرائيل" بقمعها بالقتل الوحشي، وانتهت بحصيلة مئات الشهداء وعشرات الآلاف من الجرحى ومبتوري الأطراف، في استمرار للتقليد الاستعماري بتبتر الأطراف في القمع الوحشي الذي اعتمدته بلجيكا كتقنية عقابية في استعمارها للكونغو في أواخر القرن التاسع عشر، بعد أن حوَّلت "إسرائيل" منطقة السياج الحدودي إلى حقول للموت على يد القناصة. وقد بلغت السادية الاستعمارية ذروتها بتحويل مستوطني "غلاف غزة" التلال المُطلَّة على منطقة السياج، حيث تجري عمليات القتل، إلى "مَطلّات" للسياحة الإبادية والـ"بيكنيك غراوند" في استمرار لتقاليد التنزُّه الاستعمارية في "الجنوب الأحمر"، ومن ضمنها حفلات موسيقى الـ"سايكدليك ترانس" (ساي ترانس) الباعثة على الخدر والمحفزة للنشوة والشعور بالاتصال بالطبيعة... والتي يصل صوتها إلى بيوت اللاجئين التي تقام على أرضهم ما وراء السياج.

جاءت هذه الثورة تحت مسمى "طوفان الأقصى"، الأقصى—الأرض المباركة والرمز الروحي لأرض فلسطين، ما وراء الخرائط الاستعمارية، ووطن التبلور التاريخي لهوية الفلسطينيين كحماة للأرض المباركة من الغزو الأوروبي المستمر من الحملة الصليبية الأولى إلى الاستعمار الصهيوني. فالأقصى هو بؤرة الاشتعال المقدس لتجدد الطاقة الثورية الروحية للفلسطينيين كما تجوهرت في هبة الكرامة في العام 2021، والقلعة الأخيرة للدفاع عن القدس العربية المتعددة كنقيض تام لما تمثله "إسرائيل" العنصرية، وكعنوان تحشيدي أقصى في مواجهة انتقال المستعمرة المسماة "إسرائيل" إلى طور الفاشية المتقدم للحل الأخير لحسم قضايا الصراع في اتساق مع صعود الفاشية في الغرب وتفعيل التحالف الصهيوني-الخليجي على الأرض.

وقد تشكلت حول حدث الطوفان موسوعة معرفية ورمزية متعددة المداخل التحليلية ما لبثت أن هَمَّشت حدث الطوفان وتحوَّلت إلى تحليل وفهم الإبادة، لاحقاً، بعد أن خبا الوهج الأول للحدث تحت طبقات المعنى المتكاثرة وهيمنة خطاب الإبادة الجماعية التي ما لبثت أن تحوَّلت إلى موضوع دراسي بارد. ووفاءً للحدث في زمانيَّتيْه، الطوفان-الإبادة، باعتباره عملية تاريخية وإجراءً لبزوغ حقيقة جديدة في العالم، فإن علينا أن نعود إليه في ذاته، إلى معناه الأول البسيط والمكثف. فقد كانت ثورة الطوفان في ذاتها ثورة للمضطهَدين المحاصَرين، جمعت بين العمل العسكري والهبة الشعبية من أجل التحرر من معسكر الاعتقال الأكبر والأطول في التاريخ المستمر لما يقارب عشرين عاماً. وبهذا، فإن ثورة السابع من أكتوبر تأخذ موقعها كواحدة من الثورات الإنسانية الكبرى للحرية والعدالة، وهذا ما يجب تأطيره والانتماء إليه فيما وراء سياسات الهوية والتحليلات الجيوسياسية والعسكرية. جاءت ثلاثية الحصار-الطوفان-الإبادة تكثيفاً للوضع العالمي الذي تفرضه الإمبريالية الغربية على شعوب الجنوب من حصار ممتد ونهب وإفقار وقتل وتجويع وهدر للطاقات الإنسانية بما يمكن تسميته "الإبادة البنيوية المستمرة" منذ 533 عاماً من الغزو.

وأما ما يُعقلن تسميتنا عملية طوفان الأقصى بـ"الثورة"، بما يفارق التعريف المعهود في الموسوعة المعرفية في العلوم الاجتماعية للثورات، والتي عادة ما تستحق المسمَّى بأثر رجعي بعد نجاحها في إحداث تغيير جذري، فهو أن ثورية السابع من أكتوبر تجيء أساساً من كونها ثورة في الإدراك والوعي وإعادة الأمل والإيمان بالإنسان كفاعل في التاريخ في عصر الحتمية التقنية. وعلى ذلك، فهي أكثر الثورات جذرية في التاريخ، فالثورة عملية تاريخية مفتوحة يدشنها حدث تأسيسي خارق، ومن ثم تصبح مرهونة بنتيجة الصراع بين من يعلن انتماءه لها وينذر نفسه لنقل وعيها إلى كل الميادين، ومن يحاول وأدها في مهدها. هنا، يمكننا الاستعانة بمفهوم التحوُّل في "النموذج الإرشادي "في بنية الثورات العلمية عند توماس كون كمقاربة أولية في الوعي بثورية السابع من أكتوبر، ومفهوم "الطفرة" المنسوب لأبي إسحق النَّظَّام—الإمام المعتزلي الكبير، أي حركة الأجسام من الكمون—النقطة (أ) إلى النقطة (ج) دون المرور بالنقطة (ب) الواقعة بينهما.

في أوج هذه اللحظة التاريخية، التحمت قوى المقاومة الحية في الجنوبين، جنوب لبنان وجنوب الجزيرة العربية، اليمن، في ثورة الطوفان كملحمة اشتباك بطولية واجهتها "إسرائيل" والتحالف الدولي-الإقليمي بقصف دموي خلف عشرات آلاف الشهداء والجرحى. وفي هذا السياق، رفعت المقاومة اللبنانية في معركتها الكربلائية شعار "الواجب فوق الإمكان" غارفة من الإرث النضالي المديد لجبل عامل في مواجهة المشروع الصهيوني، وكنداء أخلاقي كوني في عالم تحكمه حسابات الربح والخسارة، وهي اليوم في خضم المرحلة الثانية والأخطر من المواجهة مع الإمبريالية الصهيونية بأدوات لبنانية-خليجية للحفاظ على سلاحها وترميم قوتها. وفي الوقت ذاته، كان التحام المقاومة اليمنية بثورة الطوفان حدثاً ثورياً مفصلياً بحدِّ ذاته وقع خارج الحسابات الإمبريالية-الصهيونية-الخليجية.

تتشابه ظروف المقاومة اليمنية ضدَّ الإمبريالية العالمية والإقليمية مع ثورة الطوفان، فاليمن تعرَّض لحرب دولية-عربية، لقمع مقاومته كمقدمة للهيمنة عليه سياسياً واقتصادياً، خلفت عشرات الآلاف من

الشهداء والجرحى وتسببت بتدمير منظَّم للبنية التحتية، ويخضع لحصار خانق منذ عشر سنوات نتج عنه انتشار المجاعة وأمراض سوء التغذية بين ملايين اليمنيين. لقد كان القاسم المشترك بين الثورة اليمنية والثورة الغزيَّة هو عدم الخضوع للعبودية الإمبريالية والتمرد عليها في ظروف حصار قاهرة، فكلاهما في تماس مباشر مع وكلاء الإمبريالية في الإقليم (أنظمة العمالة النفطية، والنظام الصهيوني، والوكيل المحلي) وتحدِّيهما للمنطق الجغرافي الاستعماري المتمثِّل بالحدود. كان الالتحام اليمني في ثورة الطوفان نقضاً لمنطق الانعزالية العربية داخل حدود التقسيم الاستعماري لغرب آسيا، فأعاد المعنى الملموس للهوية العربية والجنوبية للنضال ضد الصهيونية، من جهة، ومن جهة أخرى تحدَّى بالنار البنية التحتية الأولى للإمبريالية الرأسمالية بالسيطرة على الممرات المائية لنقل فائض رأس المال الاستغلالي من الجنوب إلى الشمال. فأُجبرت حاملة الطائرات الأمريكية (هاري ترومان) على الهروب من الميدان في سابقة تاريخية في المواجهة بين الجنوب والشمال، بالنظر إلى ما تمثله حاملة الطائرات درة تاج الإمبريالية ورمز سيادتها الكوكبي. وكلاهما، غزة واليمن، يخضع لحصار المقهورين الفقراء في خاصرة مجتمعات الفائض الرأسمالي الاستعماري "إسرائيل" ودول الخليج.

في آسيا الغربية (المنطقة العربية تحديداً) يتجلى الشكل الأوضح للإمبريالية حيث تتحالف الأنظمة النفطية مع المستعمرة الاستيطانية لإدامة الهيمنة الغربية على العالم، عبر: هيمنة أمريكا على النفط وضخ ترليونات الدولارات في اقتصادها، وقواعدها العسكرية التي تضخ السلاح يومياً إلى جيش الاحتلال "الإسرائيلي"، وصولاً إلى نظام الدفاع الصاروخي المشترك والذي تمَّ تفعيله لصدِّ الهجمات الصاروخية للجمهورية الإسلامية الإيرانية واليمنية والعراقية لحماية عمق الكيان وقواعده العسكرية. كل هذا لتتواصل الإبادة دون تشويش، في استمرارية لدور هذه الأنظمة التاريخي في قمع حركة التحرر العربي منذ الخمسينيات مروراً بثورات الربيع العربي وتدجين الثورة الفلسطينية وصولاً إلى اليوم للقضاء على ثورة الطوفان. كما أن هذه الأنظمة، ومعها المستفيدين من ريعها، تعمل جاهدة اليوم على تصفية القضية الفلسطينية عبر مشاريع التطبيع وما يسمى بـ"الحل السياسي" الذي هو، في جوهره، حل الصراع على نحو يحل التناقض الثانوي بين الطبيعة الاستيطانية لـ"إسرائيل" ووظيفتها الإمبريالية في المنطقة العربية ضمن التحالف المشار إليه آنفاً، وذلك عبر إعادة تأهيل سلطة التعاون مع الاحتلال بمشروع سياسي قادر على استيعاب التناقضات التي تولِّدها "إسرائيل" في توسعها الاستيطاني ضمن مسعاها التهجيري لأهل البلاد—فلسطين، أي إنجاز مشروع الإبادة السياسية للفلسطينيين.

ومما يجدر التنبيه إليه، في سياق الحديث عن الدور الإمبريالي لدول الخليج في المنطقة العربية تحديداً، هو تحوُّلها منذ ما يقارب العشرين عاماً إلى مجتمعات رأسمالية، بالإضافة إلى طبيعتها الريعية، وذلك عبر اختراقها قطاعات اقتصادية حيوية في بلدان المشرق والمغرب العربيين والدول الأفريقية (أي لبنان والأردن ومصر والمغرب والضفة الغربية) في القطاع الزراعي والتطوير العقاري وقطاع الاتصالات، بالإضافة إلى استثماراتها العقارية الضخمة في دول الشمال، وصناعة الرياضة الرأسمالية ككرة القدم لتمتين علاقتها بالمتروبول الإمبريالي. وبهذا، فإننا نتحدث عن تشكُّل دول الخليج كمركز للاستغلال الرأسمالي والهيمنة، يتمتع بوضعية خاصة ضمن نظام النهب الإمبريالي في

خاصرة الجنوب العالمي. ولعل من المهم هنا الإشارة إلى خطر الاختراق الأمني البياناتي المجتمعي للمنطقة العربية الذي تمكِّنه استثمارات هذه الأنظمة في قطاع الاتصالات.

الإبادة

بعد الضربة الصاعقة التي تلقَّتها المستعمرة المسماة "إسرائيل" في السابع من أكتوبر، شنَّت حرب إبادة جماعية خلفت ما يقارب 60 ألف شهيد ومئات الآلاف من الجرحى والمهجَّرين حتى اللحظة، وتجويعاً منظماً وتحويلَ غزة إلى منطقة لا تصلح للحياة. لم يكن اصطفاف القوى الإمبريالية العالمية وتوابعها في الإقليم، إلى جانب "إسرائيل" في حرب الإبادة استمراراً للانحياز الإمبريالي لـ"إسرائيل"، أو استمراراً للحرب الكونية ضدّ "الإرهاب" "والتطرف"، أو استمراراً للتكفير عن معاداة السامية المتأصل في الثقافة الأوروبية وحسب، بل كان جبهة متحدة ضد الروح الثورية والنموذج الذي قدمته غزة لكل مقهوري العالم عبر تفكيكها سطوة الإمبريالية على المخيال السياسي للمقهورين ورعب الإمبريالية من عودة الثورات التحررية الكبرى بعد أن اطمأنت أنها قضت على روح الثورة العالمية ضد الاستعمار والإمبريالية، وحوَّلت القهر والاستغلال إلى بنية اقتصادية وقضايا مَطلَبية من نوع حقوق الإنسان، وخطابات التنمية لمؤسسات النهب الدولي، ومنطق الدولة القومية لـ"ما بعد الاستعمار"، والحدود... وبعدما استوعبت النقد الديكولنيالي في بنيتها المعرفية وتقاليدها الفلسفية تحت مسمى سياسات الهوية والاختلاف والأصلانية.

أرادت الإمبريالية للمقهورين أن يمتهنوا الصراخ والشكوى لا الثورة، وكانت دولها مرعوبة من فكرة سقوط الجدران التي شيَّدتها لصدِّ فقراء الجنوب والحفاظ على الفارق الاستعماري بين الشمال المترف والجنوب المحروم كما يتجلى على حدود المكسيك، ودوريات الموت في المحيطات والبحار، والسياج الجوي الإمبريالي بالمسيَّرات التي تحرس حدود الإمبريالية وقواعدها. ومن هذا الظلام الدامس، كانت ثورة الطوفان صرخة لصحوة الجنوب المستكين من أوهام الهوية الشكلية والاعتراف وبلاغة النقد... بينما سطعت شمس الحقيقة في السابع من أكتوبر مطلقة نداء الحرية والثورة الخارج من أتون الوجود الملتهب والمعذَّب كما عبَّرت البلاغة الثورية للجنوبي أمل دنقل:

"أيها الواقفون على حافة المذبحةْ،
أَشهِروا الأسلحةْ! سقط الموتُ، وانفرطَ القلبُ كالمسبحَةْ...
والدمُ انسابَ فوق الوِشاحْ! المنازل أضرحةٌ، والزنازن أضرحة، والمدى... أضرحةْ
فارفعوا الأسلحةْ، واتبَعُوني! أنا نَدَمُ الغد والبارحةْ
رايتي: عظمتان.. وجمجمةْ، وشعاري: الصباحْ!"

***

بيان غزة للتحرر الكوني
من معسكر الاعتقال الغربي

"إننا محكومون بالأمل.. وما يحدث اليوم لا يمكن أن يكون نهاية التاريخ"

سعد الله ونوس

لقد جاءت حرب الإبادة المستمرة منذ أكثر من 600 يوم ضد غزة كتطور طبيعي للرأسمالية العالمية في طورها الفاشي المتأخر في حربها ضدَّ إرادة الثورة للتحرر من معسكر الاعتقال الغربي الذي حشرت فيه العالم منذ 533 عاماً. والمتتبِّع للنقاشات في خزَّانات التفكير الاستعمارية، وخاصة في الجيش الصهيوني والأمريكي منذ العام 2006، ضمن مراجعات كفاءة الحروب الطويلة لما يسمى بـ"مكافحة التمرد"، أي تقنيات قمع الثورات المضادة للاستعمار والإمبريالية في آسيا الغربية تحديداً (ما يسمى استعمارياً بـ"الشرق الأوسط")، من حيث كونها البؤرة الملتهبة للمقاومة العالمية ضدَّ الإمبريالية، يلاحظ أنه قد تمخض عن هذه النقاشات ما يفيد بضرورة الانتقال من "الحرب الليبرالية" إلى القوة المميتة—الإبادة في استهداف المجتمعات المنتجة لهذه المقاومات، أي اعتبار المجتمعات ذاتها مركز الثقل العسكري، بحسب تعبير منظِّر الحرب كارل فون كلاوزفيتز. فخلصت هذه المراجعات إلى ضرورة قتل أكبر عدد ممكن من أفراد المجتمعات المتمردة بأكبر قدر من الكفاءة والسرعة وبأقل كلفة بالنظر للتكلفة العالية للحروب الطويلة لمكافحة التمرد. وقد رافق ذلك الدفع نحو التحلُّل من التقييدات (وإن كانت شكلية) التي يفرضها القانون الإنساني للحرب وخاصة "مبدأ التناسبية" الذي يقول بوجوب تقليص عدد القتلى إلى الحدِّ الأدنى من "المدنيين" عند استهداف المقاتلين.

وفي هذا السياق، ثابر خبراء الحرب القانونية الصهاينة ما بعد حرب تموز/ يوليو 2006 في لبنان وسلسلة الحروب على غزة على نقد هذا المبدأ كونه لم يعد صالحاً لزمن تحوَّلت فيه الحروب من حروب كلاسيكية بين الجيوش النظامية إلى الحروب غير المتكافئة بين الجيوش الاستعمارية وحركات المقاومة المسلحة التي تنشط في حواضن شعبية، التي تمَّ تعريفها كبيئات حاضنة ومنتجة "للإرهاب"، خاصة بعد فشل التدخلات الاستعمارية المدنية في القضاء على إرادة هذه المجتمعات التحررية. وقد جاءت مساهمة خبراء الحرب الصهاينة الريادية في التحول نحو الحرب الإبادية، استمراراً لدور جيش الاحتلال "الإسرائيلي" العالمي بصفته معملاً كونياً لتطوير تقنيات وأيديولوجيات "مكافحة" التمرد بسبب حالة الحرب الدائمة لهذا الجيش ضد الفلسطينيين وقوى المقاومة في آسيا الغربية، ومن ثم نقلها إلى العالم ضمن شبكة معقدة من صناعة الاستشارات العسكرية لجيوش الناتو وجيوش العالم الثالث التابعة، وذلك ضمن مسعاها للقضاء على المقاومات المسلحة والشعبية. أما عن القدرات التقنية التي تُعقلن هذا التحول نحو القوة المميتة وتجعلها أكثر فاعلية في القتل وضمن مبدأ "اقتصاد القوة" الناظم للحروب، أي تحقيق الأهداف العسكرية بأقل كلفة ممكنة، فقد مكَّنها التطور في التكنولوجيا الخوارزمية المتقدمة (الذكاء الاصطناعي)، مع توفر كمٍّ غير مسبوق من البيانات التي يمكن معالجتها لترشيد الفعل الإبادي (والترشيد هنا بمعنى الكفاءة الاقتصادية - حسابات التكلفة لا بمعنى الدقة في الاستهداف)، في تجسيد صارخ للحتمية التكنولوجية في تطور الحروب. وهنا، لا بدَّ من التذكير بالعلاقة البنيوية بين التكنولوجيا والإبادة الاستعمارية، والمثال التاريخي الأوضح في

هذا المقام هو الدور الإمبريالي لمدفع مكسيم—الرشاش الآلي البريطاني 1884 الذي أصبح رمز الإمبريالية الأوروبية في سحق المقاومات ضمن ما عرف تاريخياً بـ "التدافع على أفريقيا"، أي تنافس قوى الاستعمار الأوروبي في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين على استعمار الأراضي الأفريقية. وقد نظم الإمبرياليون تقريظاً شعرياً للدور الإبادي لمدفع مكسيم، فأنشدوا:

"Whatever happens, we have got
The Maxim gun, and they have not."

وجانس الصهاينة هذا التقريظ في إطار مباهاتهم بدور الذكاء الاصطناعي في حرب الإبادة على غزة، بالقول:

"The machine did it coldly ...
Once you go automatic, target generation goes crazy."

إن الانتقال إلى القوة المميتة—الإبادة، المبنية على مفهوم "مصنع الأهداف" (الذي سكّه الإرهابي أفيف كوخافي، الرئيس السابق لأركان الجيش الصهيوني، والذي قاد عملية التحوُّل التقني الفائق في الجيش)، هو التطور الطبيعي للسيرورة التاريخية التقنية المنتجة لفائض البيانات الضخمة Big Data التي كانت نتيجة حتمية للتطور الفائق في مجال تقنيات المراقبة الخوارزمية عالمياً، وهي تقنيات متعددة القدرات الاستشعارية وخارقة التخزين والمعالجة.

وفي هذا السياق، يمكننا فهم منطق الصعود المتزامن لتقنيات الذكاء الاصطناعي والأنظمة الفاشية الشمولية في المجتمعات الغربية، التي مكَّنت نشوء تقنية المراقبة الشاملة، ومن ثم صناعة التسلط الخفي عبر الخوارزميات التي تعمل بالخفاء وتنتج هيمنة مجتمعية تبدو وكأنها طبيعية ومحايدة. وقد أدّى هذا إلى نشوء عصر ما يسمى "ما بعد الحقيقة"، والذي هو في واقع الأمر مفهوم مخادع يتعامل مع الحقيقة كمفهوم مجرد لا بوصف ما بعديَّته باعتبارها امتداداً لهيمنة أوليغارشية اقتصادية سياسية تكنولوجية في صنع الحقائق وتعميمها. وفي عملية التلاقح بين تطوير الذكاء الاصطناعي ودراسات الوعي في العلوم العصبية، والتي تقوم في مآلها الأخير على صناعة مشوهة للوعي بناء على النسخة الأوروبية من علم الأعصاب، يتم تقديم الذكاء الاصطناعي الحسابي بوصفه محاكاة لعمليات التفكير الإنساني، وعولمته مرة أخرى ضمن وهم كونية الوعي الأوروبي. وفي الحقيقة أن خطر هذا التلاقح يتجاوز المسألة التقنية إلى تشكيل خطر كوني على الوعي الإنساني ومفهوم الإنسان ذاته، بتعميمه النسخة الأوروبية للوعي الإنساني على العالم في هجمة جديدة لاستعمار العقل البشري كمدخل لتحويل البنية النفسية والإدراكية للبشر موقعاً لعمليات الهيمنة والاختراق الرأسمالي. وهناك جانب لا يُعطى حقه في فهم سياق تطور تقنيات الذكاء الاصطناعي يتمثل في التدافع الإمبريالي على المعادن الحرجة في الجنوب، تلك التقنيات الضرورية لصناعة الرقائق والموصولات وعلى مصادر الطاقة لتلبية الاحتياجات الهائلة للبنية الإنتاجية لتقنيات الذكاء الاصطناعي Data Centers، هذا بالإضافة إلى أثره التدميري على البيئة الكونية والتي يقع الضرر الأكبر منها على مجتمعات الجنوب.

بالطبع، لم تبدأ حرب الفاشية الخوارزمية على غزة في السابع من أكتوبر، وإنما دُشِّنت بالموت المقنن بالمعادلات الرياضية للسعرات الحرارية ($Z = X+0.56R+Y-C$) لعقلنة الحصار الإبادي الصهيوني على غزة (المفروض عليها منذ العام 2006) وإخضاع غزة لنظام هو الأكثر تطوراً والأشمل والأعمق عالمياً

لمراقبة وتتبُّع كل مناحي الحياة، وذلك بالمنطق الخوارزمي الذي يقوم على تحويل حياة البشر إلى انتظامات إحصائية تحت مسمى "تحليل أنماط الحياة" Pattern-of-life analysis، وهي تقنية للمراقبة والاستهداف، ترافق تطويرها استعمارياً مع صعود حرب المسيَّرات الإمبريالية ضد الجنوب، وتشييد الجدار الإلكتروني لحصار غزة (فوق الأرض وتحت الأرض) الأكثر تطوراً في العالم، والمكوَّن من شبكة معقدة من المجسَّات متعددة القدرات الاستشعارية التي تغذِّي منصات الاستهداف الجوية البرية، وفي القلب منها شبكة الرشاشات الآلية، التي تعمل "باستقلالية" عن المشغِّل البشري الصهيوني، والمثبَّتة على سلسلة من الأبراج المدمجة في الجدار... هذا الجدار الذي جرى تسويقه للعالم على أنه الجدار الذي لا يمكن اختراقه (النسخة الأخيرة من جدار جابوتنسكي الحديدي) والذي قامت الشركات الصهيونية بنسخه على الجدار الحدودي المكسيكي. وما دمنا قد ذكرنا مسألة وجود عنصر بشري في دائرة اتخاذ القرار بالاستهداف، والتي يتمُّ التشديد عليها استعمارياً كضمان لأخلاقية استخدام الذكاء الاصطناعي في الحروب، فإننا من فلسطين (كموقع للوعي بحقيقة العالم) نقول إن وجود عنصر بشري في دائرة اتخاذ قرار الاستهداف لا معنى له في الحالة الصهيونية تحديداً، وذلك لأن المشروع الصهيوني بحدِّ ذاته هو مشروع ذو طبيعة خوارزمية لصناعة مستوطنين مؤدلجين بأخلاقية الإبادة والقتل منذ النشأة، أي أن علاقة المستوطن بآلة القتل هي وحدة وجود، لا ثنائية.

كان حدث السابع من أكتوبر "انفجاراً كونياً" بدَّد جسد وحش الفولاذ والرقائق الإلكترونية المزروعة في قلب العالم، ووعداً بعالم جديد يصدح لكل المستضعَفين بأن كسر الهيمنة التقنية الإمبريالية، التي تعلن بلسان الحال والمقال نهاية التاريخ، ممكن، وأن شرطها الأول هو الخروج من أفق نظام الهيمنة الإمبريالي السياسي التي تشكِّل الذات المغلوبة وأفقها التحرري. فلم تعد المسألة مسألة نقد وإثبات هوية أصلانية تم استدخالها في نظام التشيؤ الرأسمالي لغرض المطالبة بحقوق تنموية واستجداء الاعتراف بالحقوق السياسية، وإنما ضربة برق كفاحية صاعقة تعيد الوعي التائه إلى أفقه الحرِّ الواسع خارج الخريطة الاستعمارية الأفقية. كان الخروج في صبيحة ذلك اليوم من بطن أمِّنا الأرض (النفق) نحو المطلق السماوي كما في كوسمولوجيا المايا باتجاهاتها السبع (الشرق والغرب والشمال والجنوب وتحت الأرض والسماء والمركز يكون حيث الإنسان)... خروجاً من معسكر الحتمية التاريخية الإمبريالية القاتلة والكئيبة واليائسة، المبشِّرة بموت الإنسان والعدمية والعبودية، إلى صيرورة تاريخية تحررية تنتظم في حتمية جنوبية مآلها حرية الإنسان وتحرره من العبودية المفروضة والمختارة.

***

ماذا يعني أن ننتسب لأمل الطوفان؟

ليس الأمل حالة نفسية نقيضة للتشاؤم، الأمل نقيضه الموت، والأمل هو ذلك المكوِّن الإنساني الجوهري الذي يدفع الإنسان دوماً نحو الكدح في حياة لم يختر معطياتها "يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ". إنه كدح الإنسان نحو الإنسان الكامل في التصوف الاجتماعي الواعي بكينونته الجماعية، المبني على الشعور بنقص الحاضر وأن العالم في حالة حدوث دائم لا تتوقف حركيَّته ونشوء تناقضاته و"تجدد أمثاله" عند ابن عربي و"الحركة الجوهرية" عند صدر الدين الشيرازي، ولا يمكن حشره في

كليَّة نظام مغلق تشيِّدها قوى الشر في العالم بالحديد والنار. ليست المسألة هي الإيمان بحتمية الوصول إلى مدينة فاضلة (يوتوبيا) متخيَّلة وجاهزة تسود فيها العدالة، وإنما العمل ضمن الظروف الموضوعية لتجاوز قصورها الأخلاقي. الأمل يجسَّد واقعياً ببناء برنامج عمل وممارسة نضالية تكشف الجدران المتعددة التي تسوِّر وجودنا، على هدى الحكمة القائلة "إن من لا يتحرك لا يمكنه اكتشاف الأغلال التي تكبِّله": الجيش الذي لا يقهر، المركز والتابع، الهيمنة الخوارزمية، جدران العالم الافتراضي ونقيضه العودة إلى الاجتماعي الحقيقي، الدولة القومية، والديمقراطية الليبرالية (عاقبت الجالية العربية والإسلامية في أمريكا الشمالية الحزب الديموقراطي بسبب دعمه لحرب الإبادة على غزة بانتخاب الفاشي دونالد ترامب)، جدران الجامعات الغربية—حواضن النقد الليبرالي الإنساني حيث يتعالى الصراخ النقدي اليوم بالخطر على حرية الكلام والتعبير. والحقيقة أن حرية الكلام والتعبير كانت مسقوفة دائماً بالشرط الإمبريالي، ومعاداة السامية ونقيضها تفكيك الصهيونية واستعادة الروح الأندلسية، ودولة ما بعد الاستعمار في الجنوب التي تضخ النفط الأذربيجاني عبر ميناء جيهان التركي لتزويد أدوات الإبادة بالوقود، وتمدُّ المستوطنين والجيش الصهيوني بالخضار الطازجة لكي لا يتذمر المستوطنون من النقص في الخضار الطازجة على موائدهم المترفة.... عربياً، ليست المسألة هي "التضامن" مع الشعب الفلسطيني وإنما الوعي بأن "إسرائيل"، بدورها وموقعها في النظام الإمبريالي المتحالف مع أنظمة ما بعد الاستعمار، هي شأن داخلي في المجتمعات العربية يؤمِّن إدامة الاستبداد وحجز التنمية وإجهاض العدالة الاجتماعية. "إسرائيل" حاضرة في خبز العربي ومائه وغازه الذي يطهو عليه طعامه. تغدو جدران الانعزالية والتطبيع طريقاً موهوماً للسيادة، ونقيضها الحركات الاجتماعية العابرة للحدود الإمبريالية الوهمية. من هنا يبدأ المسار، ومن هنا يبدأ المسير: من التضامن المبني على وحدة الألم إلى وحدة النضال.

الانتماء إلى أمل الطوفان كحقيقة كونية مزَّقت حجب عالم الزيف المنمَّق، هذه الحقيقة الصباحية "إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ"، هي هوية وليست حدثاً طارئاً يجري تحويله بالحديد والنار إلى لحظة خارج الزمن، أو إلى حالة شاذة أو نتوء تشويشي في جريان الزمن الراهن يمكن للإبادة تسطيحه وإعادة الزمن إلى مجراه الطبيعي بحتمية الوصول إلى "اليوم التالي". لعل أفضل تكثيف للنظرية الثورية اليوم هو حكاية غزة من الحصار إلى الطوفان والإبادة إلى الأمل.

لا تتوقف مهمة "الواقفين على حافة المذبحة" اليوم عند إنتاج المعرفة النقدية والتي تتحول شيئاً فشيئاً إلى مكوِّن في المعرفة النظامية وتساهم في تمتين قبضتها على الحياة وهي تدَّعي تفكيكها، ولم تعد المسألة الديكولنيالية متعلقة في سؤال "هل يستطيع التابع الكلام؟"، وإنما مرتبطة بسؤال: كيف يستطيع التابع التمرد والثورة السياسية والاجتماعية؟

إننا مطالبون بتحويل هذه المعرفة إلى معرفة فاعلة في التاريخ، غير مثلومة، تجمع بين بناء الذات الثورية الروحي والعقلي: الروحي بالمعنى الإنساني الرحيب "الطريق إلى الله بعدد أنفاس الخلائق"، بمنظور ابن عربي، ضدَّ الأحادية الإمبريالية ونقيضها رحابة روحانيات المقهورين في الجنوب العالمي، والعقلي بتحويل الأفكار النقدية إلى عقائد نضالية والتزام بممارسة لاهثة لتشكيل نقاط اشتباك مع الهيمنة الإمبريالية في كل مناحي الحياة. وفي هذا الإطار يمكن أن يشكِّل الإرث الروحي الخصيب للتصوف الإسلامي ببعديْه الاجتماعي والعرفاني: الاجتماعي المقاتل ضدَّ سلطات الأغيار—سلطة

رجال الدين والمال والدولة، والعرفاني لاستعادة معنى الجليل للإنسان والطبيعة كمساهمة مقترِحة للوحدة النضالية الكونية للتحرر من سجون القوميات وتحرير الروحانيات كممارسة للخلاص الفردي الأُخرَوي، أو استدخالها في نمط العيش الرأسمالي كتقنية للصفاء الروحي التأملي وإعادة السحر إلى لعالم الذي دمرته الحداثة وإعادة إنتاج "أصوليات" أوروبية بأقنعة هوياتية جنوبية... و تحرير التصوف الإسلامي من "صناعة التصوف" الخليجية والإمبريالية في حرب الأفكار على الإسلام المناضل.

وما يعني أن ننتسب لألم الإبادة؟

ليست الإبادة حدثاً شاذاً في الإمبريالية الأوروبية وإنما هي من مكونات نمط الإنتاج الرأسمالي. ففي حرب الإبادة على غزة أصبحت القضية هي قصور الإنتاج لمصانع الأسلحة عن توفير ما يكفي من الأسلحة لتلبية الطلب، على سبيل المثال، أزمة سلاسل توريد قذائف المدفعية المعيارية من عيار 155 مليمتر. وضمن السياق ذاته، تحوَّل هدف الحرب النهائي على غزة إلى تحويلها إلى مشروع استثماري رأسمالي ينهب فيه الشماليون ومن جاورهم أشعة شمس شواطئها بينما يتمتعون بخدمات سياحية خمس نجوم توفِّرها العمالة الغزية الرخيصة. وفي النسخة الرأسمالية الصهيونية لمستقبل غزة تكون أرضاً للاستثمار العقاري لبناء مدينة شاطئية تستقطب يهود فرنسا، وتحويل ما تبقى من الغزِّيين إلى عمالة زراعية رخيصة في مزارع الحمضيات والخضروات حيث سيتم توسيع الحيازات الإنتاجية لمستوطنات "الغلاف" على أرض غزة. وأما مدينة غزة الأثرية، فسيجري تحويلها إلى مدينة سياحية بعد ترميمها تراثياً على نمط يافا القديمة... ننتسب إلى ألم الإبادة بالنضال اليومي لوقفها ومنع تطبيع عملية تحويل مصانع الجثث إلى وسائل للتراكم الرأسمالي بالاستناد إلى الوعي بأن ما يجري في غزة اليوم هو تاريخ للمستقبل وأن المنطق الإبادي ذاته لن يسلم منه أحد سواء بالقصف أو بسياسات الموت البنيوية ضدَّ الفقراء والمهمَّشين في الشمال والجنوب في عالم تتغول فيه الفاشية الخوارزمية. الانتماء إلى ألم الإبادة لا يعني تحويلها إلى مرافعة أخلاقية وأرشيفية مضادة تحت عنوان مكرور: "لماذا كانت الإبادة ممكنة؟"، بالإحالة إلى الشرِّ الأوروبي فقط – وإن كان هذا مكوِّناً ضرورياً في وعينا للعالم – وإنما مساءلة أنفسنا عن دورنا في استمرارها وإمكانيتها، وفي مواجهة سؤال: ما العمل؟ وما هي أشكال العمل الجماعي التي يجب بناؤها لاستعادة القدرة السياسية المغدورة للمجتمعات وخاصة العربية ضد الاستبداد والاستغلال والتبعية— التطبيع ... باختصار كيف للحزن أن يتحول من "حزن قاتل إلى حزن مقاتل"؟

إن ثورة الطوفان هي ثورة كونية على النظام العالمي المحكوم بإرادة القوة مقابل إرادة المعنى، معنى الكرامة والحياة. إنها ثورة تكثِّف آمال وآلام 533 عاماً من الغزو والنهب والمقاومة تنطق بآهات المقهورين في سفن العبيد العابرة للأطلسي، وعمال السخرة من المزارع الكولونيالية والمناجم، ولوعات الفقراء والمستضعفين في أمريكا اللاتينية وأفريقا وآسيا، والألم الدفين للسكان الأصليين تحت الإسمنت والأسفلت وضحايا القمع والعنصرية في عواصم الإمبريالية وصراخ الأطفال تحت ركام حروب الإمبريالية، وغرغرة اللاجئين العابرين للبحار والمحيطات الغرقى في المياه المالحة، والأنفاس المكتومة تحت تراب المقابر الجماعية لسكان أمريكا الشمالية الأصليين، وعنفوان ثوار حركات التحرر الوطني الجنوبي في أفريقيا السمراء وجبال سييرا مايسترا وظفار وقصبة الجزائر وجمهوريتي الريف في المغرب والصعيد

في مصر ومثلث الرعب في ثورة 1936 الفلاحية، وقبضات الفهود السود المرفوعة، وثورة العشرين في العراق، وثورة نوّاب صفوي في إيران... بعد عشرين شهراً من السابع من أكتوبر وبعد 533 عاماً من الثاني عشر من أكتوبر لا زالت الإبادة مستمرة ولا زالت المقاومة مستمرة.

"وسلام على أهل الحق أينما كانوا وبأيٍّ لسان نطقوا، وسلام على الخلق وأصدقاء الخلق، وسلام على الماضين والآتين من ضنائن الله وأوتاد الأرض الذين يقوِّمون زيغها ويحفظونها من الفساد"

مريم عودة الله، ما قبل الفجر، 2025